داخل الكأس أولا

اليك يا أختاه ويامن تعملين فى مدارس الأحد خاصة أقدم لك كلمتى هذه ، من اختبارات فى حقل العمل والخدمة .

منذ سنوات عدة قبل أن أبدأ عملى بمدارس الأحد ، وكنت وقتئذ تلميـــذة بها ، كان يهرنى جداً منظر خادمة أو تلميذة مدارس الأحد وقد ارتدت ذلك الثوب المحتشم الطويل الأكمام ونكست نظرها إلى أسفل . . . وقارنت هذه الصورة بفتاة العـالم وقد بدلت لون وجهها بأصباغ ومساحيق واهتمت بأن يطابق ثوبها أحدث الأزياء ، كنت أجد الفرق شاسعاً بين شابات مدارس الأحد وبين شابات العالم ، إذ كان يكفينى أن أنظر إلى المظهر الخارجى لأشكر الله كثيراً وأفخر من جهة هذا الجيش الـكبير من تلميذات مدارس الأحد .

كنت وقتئذ صغيرة أقنع من الأمور بمظاهرها ... ولم يمض وقت طويل ، حتى أصبحت ضمن العاملات بمدارس الأحد ، غير أن الواقع اقنعنى مع الأسف الشـديد بأن المظهر لا يعبر دائماً عن حقيقة النفس ، ثم خرجت بحقيقة أخطر من ذلك وأعم ، وهى أن المسيحية لا يمكن أن تقوم على مجرد أعمال يطلب الينا أداؤها ، أو على صورة ينبغى أن نبدو فيهـا وإنما المسيحية روح يملأ النفس ، وتجديد شامل لنظرة المرء إلى الأمور ، وتوجيـه معين لميولنا وعواطفنا ، وكما قال رب المجد ، أنه ينبغى أن ينظف أولا داخل الـكأس ليـكون خارجها نظيفاً .

حسن يا أختاه أن تبدى محتشمة فى ملبسك ومظهرك مما يميزك عن طياشة أهل العالم ، ولـكن على شرط أن يكون مظهر هذا الاحتشام امتلاء القلب من الحب لله والناس ، حباً يدفعك إلى القداسة والعفة والتعقل ، فقد عرفت مع الأسف كثيرات بالغن فى التجرد من العناية بالجمال والملبس إلى حد الإهمال وإلى حد القذارة أحياناً . وبالغن فى الظهور بمظهر الزهد والانضاع إلى دوام الـكآبة والوجوم ، بينما نفوسهن بعيدة عن الله كل البعد .

وليس الحديث عن التجمل هو ما أود أن أحدثك عنه ، وإنما أقول أن هذه كانت أول ما لاحظته فى بدء خدمتى ، أعقبتها خبرات كثيرة .

فهناك كثيرات يهتممن بفضيلة واحدة اهتماما يصل إلى حد الشطط مع إهمال لباقى الفضائل ،

مما يدل على أنهن لا يعرفن معنى هذه الفضيلة التي يفتخرن بالتطرف فيها ، لأن الفضائل المختلفة وحدة لا تتجزأ ، أو بعبارة أخرى هي إشعاعات مختلفة تصدر عن نفس مستنيرة ، وما اقتنان فضيلة واحدة دون سائر الفضائل إلا نوع من الخداع لأن النبع لا يمكن أن يخرج مياهاً حلوة ومياهاً مرة كما يقول الكتاب المقدس .

ليست المسيحية أن تبالغي في الخوف من رذيلة ما الى درجة قد توقعك في رذائل أخرى قد لا تقل شناعة عن الرذيلة التي بالغت في الخوف منها ، وليست الفضيلة أن تخافي من الدنس مثلا خوفاً يصل بك الى الشذوذ ، بينما تدنسين نفسك بالبغضاء والحقد والغضب ، وليست الفضيلة أن تبدي في اتضاع كاذب ، أو في استعمال كلمات التواضع والوداعة ، بينما تدينين سائر الفتيات وتحسين في أعماق نفسك أنك أفضل من غيرك ممن لم يتظاهرن مثلك بمظاهر كاذبة .

اليك نصيحتي يا أختاه يا من تنشدين الفضيلة وتتعبين في بلوغ الكمال المسيحي ، هو ذا أقصر الطرق لبلوغ هدفك ، حبي الله والناس ، عاهدي نفسك ألا تسيئي الى أحد ولا تجعلي الدافع لسلوكك نحو الآخرين مختلفاً عما تحبينه لنفسك ، أريد أن تشعري بالمحبة التي تشعرنا جميعاً بأننا أعضاء لبعض وإن كان عضو واحد يتألم فجميع الأعضاء تتألم معه ، فالحب كما قال بعض الفلاسفة هو الشعور بوحدة جميع الموجودات وفي هذا الشعور نتحلل من كل ألم ، لأن مصدر القلق والخبث في الإنسان شعوره بأن ذاته المفردة هي التي تتألم وتتعذب . ويحس الإنسان في أعماقه بأن ظواهر الوجود تبتسم كلها له فيحيا في نعيم مقيم هو وإياها — وبأن سعادة الواحد هي سعادة الآخر ، فيكون الجميع في مشاركة وجدانية عامة — ومن هذا الشعور بالإيثار والوحدة ينبع الخير وبه تقوم الفضيلة . أما الشر فهو الشعور بالذاتية وتوكيد مبدأ الفردانية

فإن امتلأت يا أختاه حباً للناس ، حباً لا يقل عن حبك لنفسك فثقي أنك ستتقنين الفضائل جميعها ، لأن : لا تزن ، لا تقتل ، لا تسرق ، لا تشهد بالزور ، لا تشته وإن كانت وصية أخرى ، هي مجموعة في هذه الكلمة ، إن تحب قريبك كنفسك » . (رو ١٣ : ٩) .

ثمرات ابراهيم
مدرسة
بمدارس أحد مصر الجديدة